مرزوق حلبي *

«الإسرائيلي الخائف» ، كما عرفته : تجربة حوار طويل.. وعقدة نصف قرن ونيف

«لم يكن هناك يوم واحد في الـ ٢٠٥٢ سنة الأخيرة لم أشعر فيه بأنني مهدد وجودياً» ـ هذا ما قاله بروفيسور يوسي ادرعي، عميد كلية الحقوق في جامعة حيفا، في معرض تلخيصه ليوم دراسي عُقد في الجامعة المذكورة يوم العاشر من كانون الأول ٢٠٠٠ لمناسبة اليوم العالمي لحقوق الإنسان. وكأنه بهذا القول أراد أن يسوّغ إقدام المؤسسة الحاكمة الإسرائيلية على انتهاك حقوق الإنسان الفلسطيني وكان في قوله هذا، بالنسبة لي، ما يُغلق دائرة الحديث في موضوعة الخوف. إذ إن الاتصالات التي كان كاتب هذه السطور أجراها مع محاضرين في الجامعة تمهيداً لعقد اليوم الدراسي شهدت أكثر من محادثة حول خوف اليهودي. فقد عقّب بروفيسور سامي سموحة، وهو عالم اجتماعي لا يُمكن اتهامه بالعنصرية أو المواقف اليمينية، على اقتراحنا لمحاور اليوم الدراسي وقائمة المشاركين بالقول «أين حقوق اليهودي في المعادلة التي تطرحونها؟» فقلنا إن انتهاك الحقوق مقصور على المواطن الفلسطيني داخل اسرائيل وان المؤسسة الحاكمة تفعل ذلك باسم الدولة اليهودية. لكنه سارع بالرد قائلاً: وماذا مع الخوف الذي يحسّ به اليهودي. اليهود هذه الأيام خائفون وهذا الخوف يقيّد حركتهم ويحدّ من تنقّلهم ومن حريتهم.. وتقييد الحرية نوع من انتهاك الحقوق». كانت برفقتي مثقفة يهودية حادة المزاج فقالت: «إنه اختيار منا. حالة صنعناها بأيدينا. خوفنا طبيعي لأننا خلقنا كل الأسباب كي نخاف. اضطهدنا، قمعنا، قتلنا، احتللنا ولم نترك فعلاً قهرياً لم نقم به. وطبيعي أن نخاف مما صنعته أيدينا».

لم تكن أحداث الأشهر الأخيرة المناسبة الوحيدة التي رأيت فيها خوف المجتمع اليهودي وإن بدا المجتمع الأقوى في الشرق الأوسط عسكرياً وتكنولوجياً. فقد كنت اكتشفت هذا الخوف على مدار العقد والنصف الماضيين، مدة عملي موجهاً للقاءات الحوارية اليهودية ـ الفلسطينية. وأيقنت في كل لقاء من جديد أن الخوف سيّد الأحكام في سلوكيات اليهودي، فرداً وجماعة، شعباً ومؤسسة.

فالخوف مركّب أساس في كيان المجتمع الإسرائيلي والدولة.

* كاتب وصحافي يقيم في دالية الكرمل

ويتحوّل من حين لآخر إلى شك وارتياب، أو هاجس وقلق تؤلف مجتمعة طوقاً أو ثقلاً يحول دون إنتاج علاقة طبيعية مع الذات الجمعية اليهودية ومع الآخر. ولو ظلّ الأمر عند حد «اللاطبيعية في العلاقة» لقلنا «لا يهم»، إلا أن هذا الخوف يدفع هذا المجتمع إلى علاقة تدميرية بـ «الآخر» ولا يُتيح له خيارات أخرى للعيش، كأنه أبداً على هذه الطريق الصراعية.

الخوف شعور طبيعي لدى الأحياء كلها، العاقل منها وغير العاقل، لكنه في السياق الإسرائيلي ـ اليهودي يتضخّم كورم ينهك الروح ويهدّ الجسد. فالخوف من الآخر، أيّ آخر، يتخذ شكلاً مغايراً لديه محكوماً ربما بحركة التاريخ وبما تركته من أثر في النفس اليهودية الجماعية كما أنتجتها من جديد الحركة الصهيونية في المئة عام الأخيرة. فالكارثة/ المحرقة (الهولوكوست) تركت في النفس اليهودية شرخاً عميقاً يتشكل خلقاً وجودياً دائماً. هذا علماً أن المحرقة ذاتها شكلت مادة دبقة استثمرتها الصهيونية العالمية في انتاج الهوية اليهودية الجديدة والذاكرة الجمعية لينتج وجود يهودي مجبول على الخوف من تكرار ما حصل سيما انه سبق ما دلّ عليه، من مظاهر لا سامية ومجازر دموية في شرق أوروبا استهدفت المجموعات اليهودية في بولندا أو دول البلطيق. فالعصر الحديث أتى لليهود بأكثر من سبب وسبب للخوف.. وقد استثمرت الصهيونية إلى أبعد الحدود هذا الخوف وأبقته مؤججاً قصد تأليف الجماعة وتحشيدها وصهرها في «أتون الصهر» الذي رأته الحركة الصهيونية مشروعاً لانتاج اليهودي الجديد!.

وهناك الخوف الناشئ عن كون المجتمع الإسرائيلي تبلور في مستوى ما كمجتمع كولونيالي، أي مكان «الآخر» وعلى حسابه. «مهاجرون» احتلوا مكان سكان البلاد الأصليين وزمانهم. قطعوا حركة تاريخهم وأجلوهم من خلال اقصائهم عن حيّزهم ومسارهم وحشرهم في وضعية انتظار.

جرى تغييب الفلسطيني عن بيته وكرومه وبيادره. إلا أن الغائب قد يعود الى حيفا كما أراده غسان كنفاني أو إلى يافا أو بيسان.. فهذا الغياب بالذات يبعث على القلق. فالآخر الغائب (الفلسطيني) موجود على مرمى النظر، في مسكن مؤقت بجوار صيدا أو على تخوم عمان، بل في داخل الوطن، على مرمى عطر البرتقال من مسقط الرأس والجامع والكنيسة. وكل أسرة فلسطينية نازحة بقوة التشريد والتهجير لا تزال تحتفظ بمفتاح الحوش أو البيت تغني أغاني الحنين ليسمعها اليهودي الذي أرسل ليحلّ مكانها في عين غزال أو حيفا التحتا أو عكا.. ويُشار هنا إلى أن مئات الوف المواطنين اليهود في إسرائيل يعيشون في بيوت لها أصحابها.. وهم يخشون حقاً من لحظة يدقّ فيه شيخ مُسنّ الباب، أو أن يهاتفهم شاب ورث المفتاح عن والديه يسأل عن الدار والجار، ماذا حلّ بهما! وهم مسكونون بهذا الخوف. حتى الشركات الحكومية للإسكان التي منحتها الدولة حقوق الملكية على عقارات الغائبين خافت من لحظة يطالب فيها الطرف الفلسطيني المفاوض بحقوقه في هذه العقارات.. فشرعت منذ بداية المفاوضات تبيع العقارات التي تملكها إلى القطاع الخاص، شركات، مواطنين لتتخلّص من هذا العبء، وحتى لا تواجه حالة تكون فيها مضطرة، إما لدفع ثمن الشقق أو التخلي عنها!.

غياب الآخر الفلسطيني أو تغييبه عن المكان يتحوّل إلى حضور مكثف في الوجدان اليهودي الفردي والجماعي!.

على العموم، يخافون وهم مدركون مم يخافون. وللخوف ما يبعثه ويؤججه ويبرره. كيان المجتمع الإسرائيلي السياسي والفلسفي والعسكري والأخلاقي، قام بالقوة، وليس لأن المجتمع الفلسطيني عارض قرار التقسيم، وليس لأن الدول العربية أعلنت الحرب فور إعلان استقلال إسرائيل، بل لأن المشروع الصهيوني في صيغتيه الحد الأدنى والحد الأقصى، البراغماتية والراديكالية، لم يكن ليتمّ أو ليُطبق إلا بثمن إلغاء الآخر وتغييبه والحلول في زمانه ومكانه. والجاني يخاف من جنايته، يخاف أن يُضبط بالجرم المشهود، أن يُطالب بدفع استحقاقات ما اقترفت يداه.

وليس هذا فحسب، فهناك الخوف من أن «الضحية» التي لم

والخوف من هذه الحالة يدفعه الى مواصلة «اللعب» على خانة المواجهة والصراع لتبرير ما فعله، وللهروب مما اقترفته يداه، ويبلغ العبث بالمجتمع الإسرائيلي أن يصوّر ذاته لذاته وللعالم أنه الضحية التي لا حول لها ولا قوة ولا مفرّ أمامها إلا الدفاع عن نفسها، وعبث العبث، أن المجتمع اليهودي صدّق هذا وتحوّلت الصورة الى تصوّر له عن ذاته، وهي في آن تصوّر له عن الآخر وهو بالضرورة صورة النقيض له.

تمت تماماً، كما اعتقد «الجاني» ستمثل، غداً أو بعد غدٍ في محكمة التاريخ لتدلي بشهادتها، بروايتها. والمشكلة هي في أن براعة المحامي غير نافذة ولا تكفي لتقويض رواية خمسة ملايين حنجرة تتلو الرواية ذاتها، في قاعة المحكمة وردهاتها وأروقتها وباحاتها، وفي كامل المساحة الممتدة للزمن والمكان. والخوف من هذا السيناريو يجعل المجتمع الإسرائيلي في حالة ارتباك اختار أن يواجهها بمواصلة فعله الجنائي والانشغال به، وإلا فإنه سيكون مضطراً للنظر في وجه ضحيته، لرؤية سيمائها ومأساتها، وبالتالي للاعتراف بها وبكل ما لها، بماضيها وحاضرها ومستقبلها...

والخوف من هذه الحالة يدفعه الى مواصلة «اللعب» على خانة المواجهة والصراع لتبرير ما فعله، وللهروب مما اقترفته يداه، ويبلغ العبث بالمجتمع الإسرائيلي أن يصوّر ذاته لذاته وللعالم أنه الضحية التي لا حول لها ولا قوة ولا مفرّ أمامها إلا الدفاع عن نفسها، وعبث العبث، أن المجتمع اليهودي صدّق هذا وتحوّلت الصورة الى تصوّر له عن ذاته، وهي في آن تصوّر له عن الآخر وهو بالضرورة صورة النقيض له.

والمأساة في هذا الخوف انه يمكن انتاجه مخصباً من خلال رموز السياسة والاعلام. فالخوف مادة ضرورية للتحشيد السياسي، وهي مادة أساس لاخراج المشاهد الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية. والأداء السياسي والإعلامي الإسرائيلي في هذا الباب كارثي، ناهيك عن أنه غير مسؤول قطعاً. فقلّما نجد سياسياً أو إعلامياً يقول الحقيقة بكاملها للمجتمع الإسرائيلي. وغياب كامل الحقيقة يولّد قلقاً حيال ما نقص واقتُطع منها. فالحياة هنا تنطوي، بالنسبة للمجتمع اليهودي، على كذبة أو جملة أكاذيب تحوّلت مع الوقت الى قنبلة موقوتة تتكتل في اللاوعي الجماعي، تقضّ المضاجع وتبعث الكوابيس في المهاجع. وقد يحصل أن يرتاح المواطن إلى قرار أو إلى سلوك، فيأتي السياسي حاملاً في أكمامه فزاعات من كل صنف ولون يرمي بها في وجهه، وإذا لم يأت السياسي أتى الإعلامي مزوداً بالعدسة أو الشاشة أو الحاسوب النقّال ناثراً صور الدم المسفوح أو صور «الآخر» مصّاص دماء أو قنبلة موقوتة لا بُد أن تنفجر في المقهى أو في المتجر أو في الحافلة... لننتبه كم من الكلام واللغو واللغط يلوكه الإعلاميون والسياسيون عمّا يعدّه العربي هنا أو هناك، وعن «مئات الانتحاريين الواقفين بانتظار دورهم الى جنّة الخلد والشهادة»، وعن.. وعن آلاف المفاجآت التي يُعدّها «الآخر» للإجهاز على الحدّ الأقصى من اليهود. حتى ان تحصيل تسوية معقولة فلسطينياً يصير وفق هذا المنطق «مؤامرة فلسطينية» في اطار «خطة المراحل» أو مشروع «تمسكن حتى تتمكّن»!.

فالأحداث التي شهدها شهر تشرين الأول الماضي وراح ضحية عنف الشرطة الاسرائيلية ١٣ شهيداً في المثلث والجليل تسببت في نوع من منع التجول الطوعي/ القسري على ملايين اليهود في إسرائيل.

فقد بدت الشوارع خالية حتى من حركة السير الاعتيادية وخفّ تجوال اليهودي في المواقع والمعالم السياحية وامتنع على نحو شبه تام من زيارة البلدات الفلسطينية أو المرور بجوارها! وهذا ما يذكرنا بما أعقب يوم الأرض الأول ٣٠/ اذار ١٩٧٦ حينما هبّ الفلسطينيون في الجليل والمثلث ليدافعوا عما تبقى لهم من أراضٍ سعت السلطات الإسرائيلية إلى مصادرتها، فقد مرّت سنوات حتى زالت حالة الاستنفار القصوى التي كانت تُعلن عشية كل ذكرى ليوم الأرض. وقد بلغ بالجيش حدّ الانتشار المكثف واعلان الجاهزية القصوى، ربما للردع ولكن، من الخوف، أيضاً.

الخوف الذي يلفّ كيان المجتمع اليهودي ويحكم تعاطيه معنا حقيقي، كان مؤسساً على ما يبرره أو على افتراض موهوم لا علاقة له بالوقائع. والخوف ليس مقصوراً على عامة الشعب، أو على الشارع الإسرائيلي، بل يشمل، أيضاً، النُخب، وحتى قوى «اليسار» و «العقلانيين» وأولئك المنخرطين في أطر يهودية - عربية.

وهذا ما يطالعني يومياً حيث أعمل وأنشط، وأحياناً، أُصعق من شدة الخوف التي يُعبّر عنها محدّثي، أو التي يُعبّر عنها الجانب اليهودي في اللقاء اليهودي - العربي، أي لقاء.

أحياناً، يشرع بتفسير كل تحرك وحركة منا تفسير الذي داهمته العتمة في يوم اختفاء القمر. فكل حفيف رمانة خطر داهم، وكل شجيرة عدوّ متربّص، وكل احتكاك للوح الزنك بقرينه نذير الموت القادم من المجهول! فإذا أنشدنا «بلادي .. بلادي» ارتعد، وإذا رفع طلبة جامعة حيفا العلم الفلسطيني اعتقد أن الخطوة القادمة احتلال الجامعة وطرد اليهود منها. وإذا ما امتنعنا عن مشاركته فرحة «الاستقلال» حسب أننا نغافله لنعدّ مشروعاً لإجهاض «الاستقلال» أو على الأقل للتخريب على فرحته. بل إن مجرّد التحدث

بالعربية يصير خطراً داهماً، أو مهاتفة بالعربية من حافلة عمومية تُصبح قنبلة موقوتة تجعل العرق يتصبب من وجوه مَن حولك! وكثيراً ما كان مجرّد التحادث بالعربية بين عربيين في لقاء يهودي ـ عربي إلى قضية شائكة أخّرت الحوار وعطّلته!.

صحيح، ان هذا الخوف في كثير منه يقوم على افتراضات متوهمة مُتخيّلة، لكنه شعور حقيقي. وصحيح ان السياسيين والإعلاميين يُذكونه ويوقدون تحته المواقد، لكنه يبقى خوفاً وجودياً يتحوّل لدى المجتمع اليهودي إلى «سأتغداه قبل أن يتعشاني»، وإلى تبني مقولة الموروث التاريخي/ الديني «القائم إلى قتلك بكّر واقتله» لخوفه محصلات عملية في اجراءات الدولة وفي قرارات صانعي القرار وفي تعاطي الأكثرية اليهودية معنا. وعليه، لا بُدّ أن نتعاطى مع هذا الخوف الذي تُنتجه النخب وتناور به على نحو يتفق مع مصالحها وينعكس علينا سلباً في غالبية الأحوال. ونستدرك لنقول إن مركبات في إنتاج هذا الخوف لا تتعلّق بنا من قريب أو بعيد، تلك الكامنة في التجربة اليهودية عبر التاريخ، أو تلك المتأتية من كون المجتمع اليهودي هنا، مجتمع مهاجرين استعمارياً، أو من كون الدولة أقيمت عدواناً وعنفاً واغتصاباً. ومع هذا، لا يُمكننا انهاء المسألة بالقول إنها «مشكلة اليهود» وليست مشكلتنا.

كان الفيلسوف البرازيلي، باولو فيريري، ادعى في كتابه «تربية المقهورين» ان أصعب امتحان يوضع فيه المقهور هو وجوب تحرير قاهره من نزعته إلى القهر. وأرانا في أصعب امتحان لنا هنا، كيف نساعد قاهرنا على التحرر من خوفه، وعلى الفكاك من هذه العقدة المدمّرة. علينا أن نقاوم القهر وأن نناضل ضد التمييز والاضطهاد، وضد الاحتلال وعسفه وجرائمه وأن ننشط لممارسة هويتنا الفردية والجمعية كما نراها ونحددها نحن. لكننا ملزمون بأن نفعل كل شيء وفق إيقاع محسوب. علينا أن نُخيف قاهرنا إلى حدود دفعه للتفكير بأن لديه ما يخسره في حال استمرار القهر، لا أن نخيفه إلى حدود شلل العقل وانتفاء فعل التفكير. حينها سيتصرف بهستيريا أو بعدوانية غريزية مدمرة. واللافت ان التجربة الإنسانية في مواقع الأرض قاطبة أثبتت ان القاهر لا يلتفت إلى المقهور من تلقائه أو من طيبة في قلبه، بل لأن المقهور يختار أن يرفض ويقاوم لردّ اعتباره والتحرر من القهر، أي، فقط، عندما يثبت المقهور ان في يديه ورقة لعب يُهدّد فيها قوة القاهر وسيطرته.

وبناءً على ما تقدم، فإن الوضوح هو المركب الأساس الذي علينا أن نعمد إليه في بناء علاقتنا بالمجتمع اليهودي «الخائف» ورغم سيطرته على زمام الأمور ـ الخوف عنده أصلاً من فقدان السيطرة ـ الوضوح في مطالبنا وأهدافنا وتطلعاتنا. وهذا ما يتطلب جهداً خاصاً في باب شرح الذات الجمعية وخطواتها. علينا فتح كل الملفات على الطاولة ليعرف. علينا أن نطرح صورة الواقع والبديل المنشود بكامل تفاصيله وحيثياته. وقد يدعي هنا المدعي أن فتح كل شيء بالذات هو ما قد يزيد من خوفه وتخوفه، وبالتالي، من قمعه! ربما! ولكن أن نكون نحن تماماً حقيقة ساطعة أفضل من أن نظل بالنسبة له نصف حقيقة أو بعضاً منها! ومن شأن الحقيقة أن تكسر حركة الإعصار الحلزونية التي يولدّها الخوف.